

الإيمان أساسُ النجاة

أخى :

قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أخى :

إن كل ما حض عليه الشرع من الأعمال ودعا إليه من الأحوال فهي صالحة لا شك في هذا ، سواء أكانت دنيوية أم أخروية : قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » أو كما قال .

فالأعمال الدنيوية إذا كانت في موضعها ولا يحترضها الشرع فهي صالحة في ذاتها . ولذلك يحبب الله عاملها وفاعلها حياة طيبة إذا كان مؤمناً . والمقصر فيها يحزن عليها في الآخرة . حيث الحياة النسيئة نتيجة حسنة للأعمال الصالحة وخاصة بالنسبة للمؤمن بمقتضى ارتباطه بربه وإيمانه بربه وبوحيته . وللعلم أقول : إن التخصيص بقوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ يفيد أن غير المؤمن إذا عمل صالحاً لا يحيا بعمله الحياة الطيبة لأن الذى يحى ويميت هو الله لا ذات العمل . فالحياة الطيبة يملكها الله . وهو الذى يتصرف فيها ولا يملكها كائن من كان في هذا الوجود لأنها متعلقة بالقلب ، والقلب بيد الله . ولذلك نجد الرجل يملك الدنيا كلها جاهلاً ومالاً وسلطاناً وعزاً ولكن لا يملك حياة طيبة رغم توفر أسبابها بمقتضى الحكم الظاهر . فإننا مما علمنا أن مصدر الحياة الطيبة هو القلب والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء .

ومن هنا نعلم أن الأعمال مهما كانت درجة صلاحها سواء أكان صلاحها متعلقاً بالدنيا أو الآخرة لا تسعد الإنسان في حياته ما لم تكن مسبقة بالإيمان بالله ورسوله قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ

عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿١٠﴾ فَإِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿١١﴾ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿١٢﴾ هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ حَيْثُ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ تَتَوَلَّدُ مِنْ صَالِحِ الْبَالِ : الْقَلْبُ ، الْعَقْلُ ، الْفِكْرُ - وَلِلْعَلْمِ أَقُولُ : إِنَّ الْآيَةَ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ مِنَ الْإِنْسَانِ . وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ يَخْتَصُّ بِهَا الْمُؤْمِنُ دُونَ غَيْرِهِ . مَنْ يَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ . وَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ مَخْلُوقَةٌ . وَالْمَخْلُوقُ لَا يَفْعَلُ لِلْمَخْلُوقِ مِثْلَهُ شَيْئاً حَيْثُ الْأَعْمَالُ وَسِيلَةٌ لَا غَايَةَ . وَلِلْوَسَائِلِ حُدُودُهَا وَمَعَالِمُهَا بِحَيْثُ لَا تَتَعَدَّاهَا وَلَا تَتَجَاوِزُهَا . وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَلْفِتَ أَنْظَارَنَا وَيُوجِّهَ قُلُوبَنَا إِلَيْهِ لَا إِلَى الْأَعْمَالِ فِي ذَاتِهَا فَلَا نَعْبُدُ الْأَعْمَالَ . إِنَّمَا نَعْبُدُهُ وَنَتَعَبَّدُهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي شَرَعَهَا لَنَا وَقَدْ قَالَ شَيْخُنَا وَإِمَامُنَا ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ السَّكَنْدَرِيُّ : مِنْ عَلَامَةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ نَقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وَجُودِ الزَّلَلِ . فَالْعِبْرَةُ بِالْمَعَانِي لَا الْمَبَانِي .

أَخِي :

بِهَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مَنَعَنَا اللَّهُ وَنَهَانَا أَنْ نَضَعِ الدَّرَجَاتِ عَلَى أَى عَمَلٍ يَصْدُرُ مِنَّا . وَنَهَانَا أَنْ نَقَرَّرَ مَصَائِرُنَا بِمَقْتَضَاهَا حَيْثُ لَا قِيَمَةَ لِلْأَعْمَالِ وَلَوْ صَالِحَةً مَا لَمْ تَكُنْ مَسْبُوقَةً بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ حَيْثُ هُوَ الْمَرَادُ مِنَّا ، فَكَثِيرٌ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الصَّدِيقِينَ لَا تَجِدُ مِنْهُمْ بَعْضَ مَا تَجِدُ مِنْ عَوَامِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي صُورِهَا وَمَعَانِيهَا . وَبِخَاصَّةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَقُومُ بِالْمَالِ وَالْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ . كِبْنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَعِمَارَتِهَا وَالصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ وَفَتْحِ الْبُلْدَانِ . وَغَزْوِ الْكُفَّارِ ، وَنَشْرِ الْإِسْلَامِ ، وَبِثِّ الدَّعْوَةِ الْمَحْمُودِيَّةِ . وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَالِ .

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْعِبْرَةَ وَالْأَسَاسَ بِالْإِيمَانِ لَا بِذَاتِ الْعَمَلِ وَقَدْ كَدْنَا بِهَذَا نَفْهَمُ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ الَّذِي عَلَيْهِ عِمَادُ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ... » الْحَدِيثُ .

فَمَا الْأَعْمَالُ إِلَّا وَسَائِلُ وَدَلَائِلُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا مَعْنَاهُ : « لَقَدْ دَخَلَ رَجُلٌ النَّارَ بِذُنْبَابَةٍ فَقِيلَ كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَقَدْ كَانَ جَمَاعَةً مِنَ الْأَعْرَابِ يَعْبُدُونَ صَنْمًا فَمَرَّ عَلَيْهِمُ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ فَمَنَعَ مِنَ الْمُرُورِ حَتَّى يَتَقَرَّبَ إِلَى إِلَهِهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ بِشَيْءٍ . فَقَالَ لَا أَمْلِكُ شَيْئاً . فَقَالُوا تَقَرَّبْ إِلَيْهِ بِقَرْبَانٍ

ولو بذبابة وقد فعل . ولذا دخل النار بذبابة . أما الآخر فقد أبى وامتنع وأقسم ألا يتقرب إليه ولو بذبابة فقتل فدخل الجنة » . أو كما قال . فانظر أخى وتدبر ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

وللعلم أذكر لأخى أن عمر رضى الله عنه كانت خلافته لمدة عشر سنوات وكلها مصروفة فى طاعة الله وعبادته . وتاريخه معروف مشهور . أما أبو بكر فقد كانت خلافته سنتين تقريباً ؛ ولم يبلغ ما بلغ عمر من الأعمال الصالحة التى يروها التاريخ عنهما . ومع ذلك فهو الفاضل وعمر المفضول . والفرق بين المقامين معلوم . قال رسول الله ﷺ « ما فضل عليكم أبو بكر بصلاة ولا صيام . ولكن بشيء وقر فى صدره . وهو حب الله ورسوله » أو كما قال . وقال ﷺ ما معناه . « لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَهْلِ الدُّنْيَا بِإِيمَانِ أَبِي بَكْرٍ لَرَجَحَ بِهِمُ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ » إذ ليست العبرة بالعمل الصالح فى ذاته . ولكن العبرة بالداعى إليه ولمن عمل هذا العمل . فإذا كان لله طيب الله حياة من عمل هذا العمل . وإذا كان لغير الله فلا تطيب الحياة بهذا العمل . وربما يكون كالطعام الشهى الحلو اللذيذ الذى تشتاقه النفوس كلها . وتتطلع إليه . ولكنه يجلب الداء والمرض بعكس المراد منه .

أخى :

إن الضمير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ راجع إلى الله عز وجل وهو الذى يؤمن به العامل حيث بمقتضى إيمانه عمل هذا العمل الصالح . ولذلك يجازيه الله بالحياة الطيبة . الحسنة بعشر أمثالها . ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ .

وللعلم أقول : إن الطيب ضد الخبيث - الطيبون للطيبات والخبيثون للخبيثات - والطيب شامل . والخبيث شامل . وقد ذكر الله الحياة الطيبة بصيغة التنكير لتباين الشعور وتغاير الإحساس ، وتفاوت المنازل والدرجات . فما تطيب به حياة شخص لا تطيب به حياة الآخر ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ فالؤمن العادى لا تطيب حياته

إذا كان هناك نقص في دنياه . والمؤمن القوى لا يبالى بنقص دنياه . ولذلك لا يعكر صفو حياته ما يجد من النقص في دنياه . وبعض الأتقياء من المؤمنين تطيب حياتهم بذكر الأجر والثواب . وما أعد الله لعباده من الجزاء ومن هم فوقهم في الدرجات تطيب حياته بذكر مولاه وخالقه وشهود الله وحده دون سواه . فكذلك تختلف الحياة بمقتضى تفاوت الدرجات وكلها طيبة مادامت بالله . وقد جاءت الحياة في الآية بصيغة المفرد لأن الأمر يتعلق بالمؤمن خاصة . فلا يشعر بفضل هذه الحياة سواه . ولأن هذه الحياة تتعلق بالقلب وأعمال القلب غير ظاهرة للعيان ولأنها غيبية . والغيب لا يعلمه إلا الله . فالقلب غيب ، والرب غيب واتصّل الغيب بالغيب لا يشعر به إلا مَنْ وَالَاه .

وقد سئل شيخنا الجنيد عن المعرفة بالله أهى كسب أم ضرورة . فقال رضى الله عنه : رأيت الأشياء تُدرك بشيئين فما كان منها حاضراً فبالحسّ وما كان منها غائباً فبالدليل : ولما كان الله سبحانه غير بادٍ وظاهر لحواسنا كانت معرفته بالدليل والتدبّر . وقال إمامنا الجنيد أيضاً رضى الله عنه . « إن الله يخلص إلى القلوب من برّه على حسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره » فانظر ماذا خالط قلبك ؟ فالمرضى بجوار المريض يختلفان في الشعور ، ويتباينان في الإحساس رغم المجاورة والمحاذاة .

ومن هنا نعلم لماذا جاء الخير بصيغة المفرد أما الجزاء العام الذى يكون في الجنة فقد جاء بصيغة الجمع في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأن هذا الجزاء معين ومشاهد ومحسوس ملموس . فهذا مقام فلان . وذاك قصر فلان وهذه جنة فلان جزاء وفاقاً . « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿ . كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتَغَوْنَ عَنْهَا جَوْلًا ﴿ ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴿ ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿ وقد قال الله تعالى في الآية ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لأن العمل في الدنيا

يكون بتكلف ومشقة . أما الجزاء هناك . فلا تكلف ولا مشقة فيه ، والتنعيم في الجنة لا تصحبه عُصَّةٌ ولا كلفة كما هو شأن التنعيم في الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ألا فليعلم أخى أن العمل الصالح هو كل مانصّ عليه الشرع ودعا إليه ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴿ السّورة .

فالعمل الصالح هو الذى يكون من المؤمن بمقتضى الأمر يقصد به وجه الله . ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ .

العمل الصالح هو ما يكون صالحاً للقبول عند الله . ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

العمل الصالح هو الذى يصلح نفس الإنسان لمولاه . ويصلحها لآخرتها ودنياها .

العمل الصالح هو ما يكون فيه صلاح الغير من خلق الله . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ ﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ .

العمل الصالح هو ما يستفيد منه المجتمع العام الكثير والكثير ..

العمل الصالح هو كل ما يخالف النفس والهوى طاعة لأمر الله وتنفيذاً لشريعته سبحانه . وقدم الله الذكر على الأنثى في الآية لأن أعمال الأنثى دون أعماله ، ولأنها من أعماله ، ولأنه مسئول عنها مكلف بإصلاحها وإصلاح أعمالها . ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ هي حياة الرضا والقناعة فإنه من رضى بقسمة الله سعدت حياته حيث لا يشعر بنقص يجرّ عليه تنغيص حياته . ولا يحسّ بقلق على مصيره . وإن نازعتة نفسه . وتطاول عليه هواها ردّ الأمر إلى ربّه

وخالقه متجردا من حوله وقوته إلى حول الله وقوته . فاقد الإحساس بالاستحقاق والجدارة بالنسبة لنفسه شاكرا ربه على ما يواليه به من نعمه وأفضاله . ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ وهكذا يخاطب نفسه إن نازعته بهواها وفجورها فيتغلب عليها حتى ترضى بقسمة الله لها وعليها .

﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ .

حياة طيبة لأنها غير مصحوبة بندم لا في الدنيا ولا في الآخرة . حياة طيبة لأنها تجلب لصاحبها سعادة الدارين . حياة طيبة لأن صفقتها رابحة مربحة . حياة طيبة لأنها سماوية محضة وربانية صرفة . حياة طيبة لأن صاحبها مع الحق لا مع الخلق . وفي الجنة لا في الدنيا ، وبروحه لا بنفسه . والروح من أمر الله . حياة طيبة لأنها حياة المعرفة والعلم بالله . حياة النظر إلى الأشياء بوجهة واحدة هي وجهة الحقيقة . حياة طيبة لأنها حياة الأنس والمشاهدة . حياة النور والإشراق والفتح والإغراق . حياة طيبة كيف أصفها لأخى وهي التي نطق بها الحق جل جلاله . والله إنها لحياة طيبة حقاً ومن ذاق عرف .

. أخى :

أستطيع أن أقول لك : الزم باب ربك ، واترك كل ما دونه . واسأله السلامة من دار الفتون . فنحن والخلائق كلنا عبيد . والإله فينا يفعل ما يريد . أشهد أن لا إله إلا الله وحده . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله .

على المؤمن أن يدور حول هذه الكلمة كيفما دارت . أخى تجرد من حظك وهواك في أعمالك . تجد الحياة الطيبة بنورها وإشراقها : ﴿ قُلِ اللَّهُ تُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ فهذه هي الحياة الطيبة التي عرفناها ويجب أن يعرفها كل مؤمن . وهي أيضاً المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ .